احمل قلمك واتبعني !

سيداتي وسادتي !

الذي أقوله الآن لستُ أوّل مَن نادى به ، ولكنني واحد ممّن يؤمنون به أشدّ الإيمان ، وممّن يتحمّسون له بكل قوة ، وبكلّ إخلاص ، لأنهم يرون في الدعوة إليه رسالةً لا بدّ من تأديتها . ولقد سبقني إلى هذه الدعوة ، وإلى حمل هذه الرسالة الأدبية كثيرون ، وعلى رأسهم جبران خليل جبران ، ونعيمة — في « غرباله » بنوع خاص — ونعمة قازان في « معلقة الأرز » ، ومحمود شريف في « ثورة قازان » وسبقني إليه جماعة التجديد في مصر ، غير أنّ دعوة المصريين إلى التجديد لم تنتج كثيراً ، وليس من السهل أن تنتج كثيراً ، لأسباب من البيئة ، ومن الظروف التي تخنق تلك الدعوة . لذلك ظلت — في الغالب — في حدود المباريات الكلامية — والقليل منها يعمل صامتاً — ، وظلّ صوت الرجعية المحافظة أقوى وأعلى من صوت التجديد والانطلاق والإبداع . وتبعاً لذلك قلّ العمل الحقيقي من جانب دعاة التجديد ، ذلك العمل الذي هو وحده يستطيع أن يثبّت أصول دعوتهم ويقيم صروحها شامخة زاهرة ، بينما انصرف أدباء المهجر الى العمل الجدي ، الذي سرعان ما قلبَ الأوضاع الأدبية ، وفتح العيون على كل جديد حيّ ، فيه متعة للروح وغذاء للقلب ، وسموّ بالنفس الى ما فوق مستوى الطين . وهكذا قدر للثورة الأدبية المهجرية أن تكون أوسعَ الخطوات أثراً في تقدّم الأدب العربي الحديث ، وفي سعة آفاقه . ولولاها لظلّ أقصى ما يمكننا إنتاجه في حقل الأدب ، لا يخرج عن أمثال « مجمع البحرين » و « نجعة الرائد » و « حديث عيسى بن هشام » ، وما إلى هذه المقامات المتهرّئة التي ضاعت فيها جهود ، وفنيت أعمار ، وهُدرت مواهب ما كان أخصبها وأغناها ، وما كان أقدرها على أن تنتج انتاجاً كثيراً قيّماً لو عرفت الطريق ، ويا ليتنا لو كان هذا كلّ ما يمكننا أن ننتجه في الأدب !

أقول « الأدب » وأنا أرى هناك اختلافاً كبيراً في تحديد معنى « الأدب » وفي فهم

(١) محاضرة أدبية علمية

أهدافه وغاياته . فالأدب ، كما لا يزال السواد الأعظم — للأسف الشديد — يفهمه ويجري عليه ، هو رصف الألفاظ والجمل : هو اللغة ، أو اللغة هي أهم ما فيه ، وهي أداته ومادته وهي جوهره وغايته .

ألا ترون أننا لا نزال حتى اليوم ، حينما نريد أن ندرس الخصائص الأدبية لعصر من العصور ، أو لجيل من الأجيال الأدبية ، أو لأديب معين من الأدباء ، إنما نقف قسماً كبيراً من الدرس على بيان المزايا « اللغوية » لذلك العصر ، أو لذلك الجيل من الأدباء ، أو لذلك الأديب الذي ندرسه ؟

أو ما ترون أننا حين نريد أن نتحدث عن الفرزدق مثلاً لا نجد أبلغ في الدلالة على علو كعبه في الأدب من أن نقول : « لولا شعر الفرزدق ، لذهب ثلث اللغة العربية » ؟ وحين ندرس أدب المتنبي أو المعرّي أو غيرهما نقول إنهما كانا بصيرين بدقائق اللغة ، عارفين بأحوالها وأوضاعها ؟ . وحين ندرس عصراً من العصور الأدبية ، نذكر مدى ما أصاب « اللغة » فيه من رقيّ وانحطاط ، وما دخل عليها من ألفاظ أعجمية ، وما تعرّب ، وما اشتُقّ ، وما نُحتت من ألفاظ ، وما دخل من تزاويق لغوية ندعوها بياناً ، أو بديعاً ، أو بلاغة : جناساً ، أو استعارة ، أو كناية ، أو تورية ، أو ما إليها من سماجات لا تزال تحشو بها عقول القرّاء ، كأنها العلم كله ، والأدب كله ؟

وفي المدارس أيها السيدات والسادة ! في المدارس ، أما ترون أننا لا نزال الى اليوم ، برغم ما نزعم لأنفسنا من اتساع آفاقنا ، وسعة اطلاعنا ، وغزارة علومنا ومداركنا ، لا نزال نفرض على الطلاب فرضاً أن يكون أوّل ما يدرسونه في « تاريخ الأدب » امرؤ القيس وإخوانه ، ممن حفظتهم الصحراء قبل نحو خمسة عشر قرناً ، بألفاظهم الخشنة ، وتعابيرهم الصحراوية ، وخشونتهم البدوية ، وبكل ما لديهم من ميزات تباعد بين عصرهم وعصرنا ، بين أذواقهم وأذواقنا ، بين فهمهم للأدب وفهمنا ، وبين حياتهم وحياتنا . ثم نفرض عليهم أن يسيروا في هذه الدوامة العقيمة المملة قُدُماً ، وعلى هذا النسق العقيم المملّ ، الذي لم يخرج عليه واحد ممن أرّخوا الأدب العربي للمدارس في العصر الحديث ، حتى إذا وصلنا الى عصر جبران ، ونعيمة ، وأبي ماضي ، والريحاني وفوزي المعلوف ، وشوقي ، وحافظ ، ومطران ، وطه حسين ، وبشاره الخوري ، وأبي القاسم الشابي ، وأبي ريشه ، قلنا لهم — لهؤلاء الطلاب المساكين ، الذين يريدون أن يعرفوا شيئاً يناسب عصرهم ، فيُعطون أشياء تبعدهم عن عصرهم خمسة عشر قرناً ، أو تزيد أو تنقص — قلنا لهم : قفوا أيها الطلاب ، ولا ترغبوا بعيداً ! فالأدب كله عند امرىء القيس وطرفة وابن حلزة ، وعند

الحطيئة وجرير والفرزدق ، وعند بشار وأبي نواس وصريع الغواني ، وأضراب هـذا الطراز القديم . وإذا خطر لنا أن نقدّم لهم شيئاً من أدب العصر الحاضر ، قلنا لهم : دونكم البارودي وحفني ناصف والرافعي ، ودونكم المنفلوطي والشدياق واليازجيين والبستانيين ، ودونكم ودونكم من إخوان هذا الطراز العتيق الذين عاشوا في عصرنا الحديث بأجسامهم ، وفي أقدم عصور التاريخ بعقولهم ، وليست ثمة ميزة تميز آدابهم عن آداب من سبقوهم في عمر التاريخ ، فهم وإيّاهم كتّاب ألفاظ . . . ألفاظ جافة تسرّبت منها الحياة قبل أن تصل الى رؤوس أقلامهم . . . ألفاظ وتزويقات ألفاظ ، غايتها أن تحفظ للعربية قواميسها الى الأبد فكأن القواميس — أو على الأصح ، النواويس المغلقة ، نواويس العقول ، ومقابر العلوم والآداب — كأنّ هذه هي أصل العلم كله ، وهي الأدب كله ، ثم نزعم بعد ذلك ، ولا نستحي أن نتاجر في القرن العشرين ، بأننا نلقّن أبناءنا علماً وأدباً . وصدّقوني ، سيداتي وسادتي إنّ الطالب لا يكاد يصل من دراسته للأدب العربي الى عصر النهضة ، حتى يكون قد ملّ الادب ، وعاف درس الادب ، واشمأز كل الإشمئزاز من هذه السماجات التي اردنا أن نجعل منها « مشهيات » تحبّب إليه الأدب ، وإذا بها « منفّرات » منه ، مرغّبات عنه . وهكذا ننشىء من الطالب عدوّاً للغته ، ولآداب لغته ، من حيث أردنا أن نحبّبهما إليه . والسبب في ذلك سوء إدراكنا لما يجب أن نقدّمه اليه أولاً . ولو نحن سرنا في كتابة تاريخ الأدب العربي ابتداءً من عصرنا الحاضر ، راجعين الى الخلف ، وأحسنّا اختيار ما نقدّمه من أدب العصر الحاضر ، لعرفنا كيف ننمي في الطالب حبّ لغته ، وحبّ آدابها وغرسنا في نفسه شوقاً الى الاستزادة من ينابيعها القديمة والحديثة على السواء . ومتى وصلنا الى هذه النتيجة ، نكون قد نجحنا أعظم نجاح في تأدية رسالة الادب والتربية معاً .

إنّ العلم والادب غايتهما خدمة الحياة ، وخدمة المجتمع . فهل في ما تدرّسه مدارسنا مما نسميه « تاريخ الأدب العربي » و « علوم العربية » شيء من هذا ؟ هل فيه شيء ؟ ! . . . هل فيه شيء ؟ ! . . .

لو كان إليّ أمر الدروس العربيـة في كافة المدارس ، لما ترددت لحظة في حرق القسم الأكبر من الكتب التي ندرسها فيها ، ولما أبقيت على شيء مما نسمّيه « علوم العربية » : العروض — جريمة الفراهيدي على الشعر — ، البيان ، البلاغة ، القواعد ، وأخيراً تاريخ الأدب العربي في حالتـه الحاضرة ، لانه ليس في كل هـذه ما يصلح للحياة ، ونحن بعدُ نفرضها على طلابنا المساكين فرضاً ، ولا نكتفي بذلك ، بل نمنح المتفوقين فيها الشهادات : الشهادات التي معناها أنهم تعلموا شيئاً ينفعهم للحياة ، ويفتح عيونهم على حقائق الحياة ،

ويوضح نفوسهم وقلوبهم لممارسة الحياة ، ولإصلاح المعوج من أمورها ، ويفسح مداركهم ومعارفهم وآفاقهم . ثم نحن نمنع هذه الشهادات نفسها حتى يعجزون عن التفوق في هذه الحلقات التي ندعوها علوماً وآداباً ، وكأننا بهذا نسجل على هؤلاء المساكين أنهم غير مزودين بسلاح لجهاد الحياة ، وبمعنى آخر نسجل عليهم أنهم قصروا في فهم البيان والبديع ، وفي حفظ شعر امرىء القيس والأعشى ، ومعرفة حياتهما ومميزاتهما ، وقصروا في حفظ العروض ، بزحافها وعللها ، ولم يحفظوا وصايا الخليل ، وسيبويه ، والدؤلي والأخفش التي تعلمهم أن « دعا » أصلها « دعو » ، وأن « ميزان » أصلها « ميوزان » ثم درجت عليهما قواعد الإعلال . . . القواعد التي نريدها أن تظل هلة سرمدية خالدة في جسم اللغة العربية وآدابها .

أرأيتم أي سلاح خسر أولئك الطلاب المساكين الذين لم يعرفوا ذلك كله ؟!

إن سادتنا القوامين على شئون اللغة والأدب ، يقولون إن هذا هو سلاح الحياة ومفتاحها ، وإنه عمادها وقوامها . أما نحن ... أما نحن ، أيها السيدات والسادة ! فنقول : إن هذا عبث وسخف ، ! . . نعلموا طلابنا علوم الحياة ، لا علوم اللغة القديمة ، واتركوا هذا الذي هم الآن مجبرون على درسه للذين يهمهم التخصص ، والبحث عن القديم ؟ وبكلمة أخرى لمن يريدون أن تكون عقولهم « متاحف » ودور آثار . . . على أن لا يكون ذلك قبل انتهاء الدراسة الثانوية كاملة . . .

اطرحوا من الكتب المدرسية ، من القواعد : ما كان مملاً متشعباً ، متناقضاً ، كثير الوجوه والجوازات ، واطرحوا سائر المصطلحات المنطقية التي تتألف منها علوم البلاغة والعروض . اطرحوا منه كلها جانباً ، وعلموا الطلاب بدلاً منها أشياء تفيدهم في الحياة . وأما الأدب العربي — ولا محيص لنا عن تدريس الأدب ، لأنه غذاء القلب والروح — فلنعلمهم منه آداب العصر الحاضر ، أو الحي وحده من أدب العصر الحاضر . ولنترك القديم البالي ، لأصحاب القديم البالي ، وإذ ذاك امنحوا الطلاب المتفوقين الشهادات ، وامنعوها عن المقصرين ، لأن المنح والمنع حينئذ يكونان عن فهم ، وعن حق ، وعن ضمير مخلص أمين .

* * *

هذا شيء — أيها السيدات والسادة ! — ، وشيء آخر لا يقل عن هذا تأخراً وعقماً ورزاية ، وهو في غير المدرسة . . . فإنما نريد أن نعمل على نهضة « الأدب » أتدرون ماذا نعمل ؟ . . أتدرون ماذا ؟!

إننا نشيء المجامع اللغوية ! . . . ، ثم المجامع اللغوية ، ونكدس فيها المعاجم ، وكتب اللغة الصفر من عهد سيبويه ، حتى عهد ابراهيم اليازجي ، ونحبس معها الرجال — ذوي العقول الصفر ، أسوة بالكتب الصفر — ليعيشوا في أزمانها ، ويقدوا عقولهم ، وعقول الناس — ويلها من تغذية قاتلة ! — بما يطاردونه في بطونها من لغو وهراء ، ثم . . . ثم يطلعون علينا بعد سهر الليالي ، وطول الكد والعناء . . . أتدرون بماذا يطلعون علينا ؟ . . إن أقصى ما تصل اليه آداب هؤلاء « المجمعيين المعجميين » هو أن يربطونا — والعياذ بالله — بأذناب الكسائي ، والأخفش ، والدؤلي ، وسيبويه والفيروزابادي ، والجوهري ، وابن منظور ، والأصمعي ؟ والزمخشري ، يربطوننا بأذنابهم الى أبد الآبدين ويكفي ان يقولوا لنا : « قال فلان » من هذه الشرذمة البائدة ، ليحسبوا أنهم قد طلعوا على الدنيا بجديد ، جديد يلخص كل أغراض الحياة في كلمة ! . .

أجيبوني ، أيها الناس : : أإذا قال الأصمعي أو الجوهري ، قالت الحياة ؟ !

أقاس النحاة حدود الزمان ومرى خيالي وعقليتي ؟

كما يقول نعمة فازان . وهل ماتت حقائق الحياة ، وعبرها ، وحاجاتها كلها معهم ، حتى نعيش أعمارنا على نبش قبورهم لنأخذها عنهم ! ؟

لقد قال أولئك القوم لأزمنتهم ولأجيالهم ، فلماذا لا نقول نحن لأزمنتنا ولأجيالنا ؟ لقد أدّوا في زمانهم ما كانت عقولهم ، التي هي بالنسبة الى زمننا الحاضر قاحلة كالصحراء عقيمة ككتبهم الصفر ، تحسبه رسالة الأدب — وما أبعدهم عن فهم رسالة الأدب — فلماذا لا نؤدي نحن بدورنا في زماننا ما نعرف أنه رسالة الأدب في الحياة ؟ ولكن لا كما كانوا هم يفهمونها ، بل كما يفهمها عصرنا . وشتان ما بين فهمهم وفهم عصرنا !

هم في أزمانهم كانوا يحسبون أنفسهم مبتدعين في أساليبهم الأدبية — استغفر الله ! بل أصلوبهم الواحد الأحد السرمدي ، الذي لم يتغير ولم يتطور ! — فلماذا لا نكون نحن مبتدعين في أساليبنا الأدبية . نهج لأنفسنا في الأدب والحياة أساليب نؤدي بها رسالة الأدب في الحياة ؟

أما السادة « المجمعيون المعجميون » ، فما أجدرهم بأن يفرض عليهم نظام « الفيتو » يعيشون في نطاقه مدى الحياة ، لئلا يتصلوا بالناس ، فيفسدوا عليهم الحياة بما ينبشون من رمم الموتى : الرمم العفنة البوالي ، ولتبق لهم وحدهم لذة هذا النبش المتواصل المضني ، الذي لا يفيدهم ، ولا يفيد الأدب ، ولا يفيد الناس ، ولا يفيد الحياة في شيء مطلقاً . فهم قوم يمسكون بأيديهم حبالاً من حديد ، يحاولون بكل قواهم أن يمدوا بها كل من يحاول

أن يطلق جناحيه مع الهواء الحر : هواء الحضارة العصرية ، والحياة العصرية ، التي لا تتسع أبداً لتقليب المعاجم الكبار الضخام ، في سبيل البحث عن أصل كلة واحدة ، ومشتقاتها ومرادفاتها ، ومضاداتها ، يشدونه بها الى أعرق عصور التاريخ في القدم ، ويقولون له : من هنا استمد وحيك وإلهامك ! لا تقل أدباً ، ولا تحاول أن تأتي بفكر جديد ، أو معنى جديد ، بل خذ ألفاظاً قديمة ، مما اعترف بصحته الزمخشري والاصمعي والكسائي ، ومما ورد في شعر الجاهليين ، والمخضرمين ، والأمويين ، والعباسيين . . . وهكذا نعيش معهم جامدين متأخرين ، الى أبد الآبدين !

ولمَ ذلك ؟ ! انها قصة الكأس والشراب . . فكما انه لا يصح أن تتناول الشراب في كأس وسخة أو مهشمة ، كذلك لا يصح أن تكتب الادب بلغة غير جميلة !

آمنّا وصدقنا أيها السادة ! ولكن هل حقّاً أن الكأس لا تكون جميلة ، إلاّ إذا أخرجت من قبر امرىء القيس ، أو من قبر الاصمعيّ ؟ ! ألا تصلح كأسٌ مصنوعة من « النايلون » مثلاً للشراب ، أكثر مما تصلح له كأس من الفخّار ؟ وهل يضير الشراب أن يوضع في قدح من « النايلون » لأن الكسائي والفرّاء وسيبويه لم يعرفوا « النايلون » ؟ سيداتي وسادتي !

إن طول اعتمادنا على الكتب الصفر ، وطول عبادتنا للموتى ، قد صبغا عقولنا بمثل صفرة تلك الكتب : الصفرة المتهرئة ؟ وختما على آدابنا بمثل موت أصحاب تلك الكتب الصفر . وهكذا لا نزال مرضى في عقولنا ، موتى ـ أو على الأقل جامدين جمود الموتى ـ في آدابنا . فاذا عاد سيد منّا من عاصمة بلاد الانكليز على متن « طيارة » ، استقبلناه بشعر أقدم من عصر امرىء القيس ، نستهلّه بقولنا :

« أزمع الركاب فقد أطلت غيابا ! . . . »

أي والله ! « أزمع الركاب » لرجل يمتطي الطيارة في الجوّ . . . .

وإذا تغزلنا ، لم نجد ألطف « من المهاة » نتغزّل بعينيها ، فنقول :

« للمها أهدت إليها المقلتين . . . . »

وذلك لأن البدويّ الذي عاش في الصحراء ، رفيقاً للمها ، قد سبقنا الى هذا الوصف فهو إذن تعبير جميل . أما أن نعرف نحن ما هي المها ، أو لا نعرفها ، فليس بأمر ذي قيمة ! وإذا أردنا أن نرثي ، لم نجد الا أساليب القدماء العديدة المتالاة في كذبها ، وبعدها عن الاصالة ، وعن تصوير اللوعة الصادقة ، فنقول :

« لو كان في الذكر الحكيم بقيّة   لم تأت بعدُ رثيت في القرآن ! »

وكذلك إذا أردنا أن نمدح ، أو نهجو ، أو نبكي ، أو نصف ، لم نجد الا المعاني القديمة ، والأساليب القديمة ، نمدح ، ونهجو ، ونبكي ، ونصف بها . . .

جمود . . . جمود قاتل . . . ونحن مع ذلك نسير عليه ، ولا نشعر ، أو لا نريد أن نشعر به . . . ولِمَ ذلك ؟ . . . أليست لغتنا هي أمّ اللغات ؟

أو على الأصح هكذا دعوناها ؟ . . . أمّ اللغات غداة الفخر أمهما . . . ؟

كما يقول حافظ ابراهيم . . . ألم يُكتب بها القرآن ؟ . . . إنها إذاً لغة الله ، ولغة الملائكة . . . ولغة آدم وحواء في الفردوس ، فكيف لا نرضى بها اليوم ؟ !

قولوا ما شئتم ، أيها الناس ! وليتحمّل من شاء تأخره وجموده الأعذار والعلل ، فقد اعتدنا دائماً — حينما نشعر بضعفنا وجمودنا — أن نحاول جذب الله — أو أقرب الأشياء الى الله في رأينا — الى صفوفنا ، لنسجل عليه الجمود ، تبريراً لجمودنا ! ومن ذا الذي يجرؤ على التمرد على الله ، أو على أقرب الأشياء الى الله ؟ ! إنه اذن لكافر اكفر ! فارجموه ! . . . وهكذا نكسب تأييد السماء لنا ، وذاك حسبنا من النصر !

أما نحن فإننا نهتف على أصراتنا مع الشاعر المهجري نسمة قازان ، في « معلّقة الأرز » :

إذا كان أمسي ويومي ، غدي فيارب إضرب على مقلتي !

نعم ، ليضرب الله على مُقلتنا إن كان أمسنا سيكون هو نفسه يومنا ، وغدنا أيضاً ، بغير تبديل أو تجديد ، فلن نرضى أن تبقى الألفاظ والأساليب اللغوية اللفظية القديمة — التي كانت زاد أمسنا ، ولا تزال عتاد يومنا — هي نفسها زاد غدنا ، وعتاده ، لأننا لا نرضى أن نسجل على أنفسنا مثل هذا الجمود العقيم . فالأدب عندنا ليس بالألفاظ ، وإنما هو بما خلف الألفاظ من معانٍ وفكر :

فما الشعر بالكأس برّاقة ولكنه الخمر في الخمرة
كذا فتنة العين بالمرأة هي الخمر بالعين لا المرأة
إذا ما الحبيب تكلم ضمراً فأين الكلام من الغمزة ؟ !

كما يقول قازان ! . . وأين كذلك الألفاظ والأساليب القديمة من الأدب الحيّ ، الذي يجب أن نتصرف الى إنتاجه : أدب العقل والقلب والروح ، الأدب الذي هو إنجيل الحياة وقرآنها ، وتوراتها ، والذي يمكنه أن يخلق العالم من جديد ، حيّ يخلق في العالم نفوساً تحب الخير والجمال ، وتهدف الى سعادة الحياة ، ولا تعوقه عن حب الخير والجمال والسعادة لفظة جامدة :

لئن عاق دربي الى الله لفظٌ هوت جوادي يسير الخبب (١)
وجوّزت في الصرف ما لا يجوز وأوجبتُ في النحو ما لا يجب
إذا قام غيري بألفاظه تكون القواميس خير الكتب !

واللغة التي تقف جامدة دون كل تطوّر ، إنما هي ميتة ، لا تصلح للحياة ، ما دامت لا تستطيع مجاراة الحياة السائرة دائماً الى الأمام في تطورها المستمر الذي لا يكلّ ولا يتوقف مادام دولاب الزمان في دوران ، والليل والنهار في تعاقب ، وما دامت الشمس تغيب كل يوم في المساء ، لتطلع على الناس في الصباح :

فلا طلع الفجر يوماً عليّ إذا لم يلذني مع الظلمة (٢)

أما القرآن فيا لفداحة خطإنا ، ويا لغباوتنا يوم نحسب آيه يقف عقبةً كؤوداً في سبيل التطوُّر الأدبي ! فلقد كُتب القرآن باللغة التي كان يتكلمها الناس ويفهمونها حين نزوله . وما كان يمكن مطلقاً أن ينزل في غيرها . ولو أنه نزل في أيامنا هذه ، لما رأينا فيه لغة قريش القديمة ، بل لكُتبت بلغة العصر الحاضر ، التي نستطيع أن نفهمها بيسر وسهولة . فلقد كان القرآن أحرص مما نتصوّره نحن ، على مراعاة خصائص العصر ، وعلى تأدية رسالة الحياة بأحسن الأساليب الممكنة في أيامه . ونزول القرآن بألفاظه المعروفة لا يعني أن تجمد اللغة عند تلك الألفاظ الى الأبد ، فلم تكن هذه غايته ، ولن تكون ، فليس للقرآن لغةٌ ، ولكنه جوهر ، ولو كان لغة وألفاظاً فحسب ، لما استطاع أن يكون دستوراً للحياة ، صالحاً لكل جيل ، فاللغة تتطوّر وتتبدّل مع الزمن — ككلّ شيء آخر — وأما الجوهر فهو الذي يكمن فيه سرّ الخلود .

ترى ماذا كنّا نكون اليوم ، وأي تاريخ كان يمكن أن يكون لنا ، لو لم يقم الإسلام والقرآن بالثورة الساحقة الماحقة على جمود الصحراء وخمولها ، على عصبيتها القبلية ومنازعاتها على أديانها وأصنامها ، وعلى تقاليدها وعاداتها ؟

ماذا كنّا نكون اليوم ، وأيّ تاريخ كان يمكن أن يكون لنا ، لو لم يَقُم الاسلام والقرآن بفتح أعين القبائل العربية ، الغارقة في جفاف الصحراء بتقاليد الهمجية العمياء ، على حاجات العصر ، وعلى طريق الله والمجد ، وعلى طريق التاريخ الداوي ؟

لقد كان الاسلام والقرآن نفسهما ثورة على الجمود والرجعية ، وتجديداً في الدين ، وفي التشريع ، وفي الحياة . فما بال الكثيرين من الجامدين الرجعيين يحاولون أن يسجلوا عليهما الجمود والرجعية وهما من الجمود والرجعية أبرأ وأنقى من ضمير يوسف من تهمة امرأة العزيز؟!

(١ و ٢) لنعمة قزان

صدقوني ، سيداتي وسادتي : إننا لو استطعنا أن نثور على الأدب اللفظي القديم اليابس كما ثار القرآن على الحياة الجاهلية ، وأن نبدع في الجديد الحي منه ما أبدع القرآن في حياة الصحراء ، حين خلق من شتيت سكانها أمة أخضعت الدنيا لسلطانها ، لاستطعنا أن نبدع في الأدب الحي أروع ما تنتجه الأمم .

إذن فثورتنا اليوم على الأساليب القديمة والأدب القديم واللغة القديمة ، لا تعني الثورة على القرآن ، ولا يمكن أن تعنيها ، فليس من المعقول مطلقاً أن يطالب إنسان بتغيير لغة كتاب ما — بله القرآن نفسه — بحجة أن الزمان قد تطور ، وتطورت معه اللغة . فذلك سيبقى القرآن هو القرآن : له قدسيته ومكانته ورسالته ، وله لغته التي لن نستطيع أن تمتد إليها يد بحذف أو تبديل . أما اللغة نفسها — اللغة التي نتفاهم بها — فقد آن الأوان لأن نخرج فيها عن سنن الصحراء ، وقواعدها ، وتعابيرها ، وألفاظها ، وأساليبها ، وإذا كنا نريد أن نؤدي رسالة الأدب الى الحياة والأحياء . فالذي يجب أن نفهمه الآن هو أن الأدب رسالة ، وقيادة ونور .

هو رسالة : لأن الأديب هو نبي الحياة ورسولها ، والروح الذي يفهمها حق فهمها — أو هو يجب أن يفهمها حق فهمها — ويعرف كيف يمهدها ويفرش طرقها بالورود أمام أبنائها الأحياء ، ليعرفوا فيها الجمال والخير وسعادة القلب والروح .

وهو قيادة : لأن الأديب — ابن الحياة البار ، ورسولها الأكبر — هو الذي يعرف كيف يسير بأبنائها في طرقها العديدة الملتوية الوعرة ، ليصل بهم الى الجمال والخير ، وسعادة القلب والروح .

وهو نور : لأن الأديب هو المشعل الذي يستطيع أن ينير سبل الحياة أمام السالكين لكي يهتدوا فيها الى الجمال والخير ، وسعادة القلب والروح .

فالجمال والخير والسعادة ، إذاً هي غاية الحياة ، ولكنها جميعاً كامنة في مكان واحد... مكان صغير جداً ! أتعرفون ما هو ؟!

إنه قلم الأديب ! فيه وحده — في رأسه الصغير الدقيق — يكمن الجمال ، ويكمن الخير ويكمن سعادة الحياة . ومنه يفيض النور الذي يقشع الظلام عن وجه الحياة ، ومنه يتسلسل الخير ، ويتسلسل الجمال ، وتتسلسل السعادة ، إذا عرف كيف ينفث نور رسالته المقدسة على وجه صحيح .

هكذا نفهم الأدب ، أو هكذا يجب أن نفهمه اليوم . أما اللغة التي لا يزال الأكثرون يحسبونها الشرط الأساسي للجودة والقوة في الأدب ، فإننا نرى أن بينها وبين الأدب فرقاً

بعيداً جداً ، فالأدب هو رسالة الحياة : الحياة الشاملة المتطورة ، أما اللغة : الألفاظ والتراكيب ، فإنما هي مجرد وسيلة تنقل هذه الرسالة . وكل رسالة هي في حاجة إلى « ناقلة » مناسبة للوصول إلى كل فهم ، وإلى كل ذوق ، يغلب عليها البساطة والوضوح والجمال ، لا التعقيد والبلادة والتعقيد ، ولو كانت « الاشارة » — نعم الاشارة — كافية لتأدية هذه الرسالة ، لكانت هذه الاشارة أدباً في الصميم . ولو كان يمكن تسجيل الفكرة الأدبية ، أو المعنى الأدبي ، أو لو كان يمكن تسجيل العواطف والآمال والآلام على الورق بالاشارة ، لكان من الواجب تسجيلها بهذه الاشارة ، إن كان لا يمكن إخضاع اللغة للأدب ، وإعطاؤها خصائص العصر الذي نعيش فيه ، لتتمكن من التعبير عن حاجاته ، ومن تصويره بصدق !

إن اللغة ، التي هي « ناقلة » رسالة الحياة يجب أن تتكون من البساطة والسهولة والجمال بحيث تصلح لهذه الرسالة المقدسة . ألسنا نرى أن الأواني القديمة التي كان يستخدمها الأقدمون في حاجات عصورهم ، لم تعد تصلح لأن نستعملها نحن اليوم ، حتى لنفس الأغراض التي كانت تستخدم فيها ؟ وإنما كل ما تصلح له اليوم هو أن توضع على رفوف المتاحف ليتفرج عليها من يشاء من عشاق القديم والتحف الأثرية — ليتفرج عليها فقط ، لا ليستعملها مع أن بعضها كان يمكن استعماله لو أردنا . فإذا كنا نفعل ذلك بالآنية التي تستخدم لقضاء حاجات الجسد الفاني ، فكم يجدر بنا إذاً أن نفعل مثل ذلك تماماً بالآنية التي نستخدمها لقضاء حاجات العقل والروح الخالدين ؟

أما كان الأجدر بنا أن نبقي ألفاظنا القديمة ، وأساليبنا القديمة ، ولغتنا القديمة وكثير من أدبنا القديم ، كأشياء أثرية ، لها جلال القدم وروعته ، ولكنها لا تصلح للاستعمال في العصر الحديث ؟ لأن لكل عصر خصائص يتميز بها ، والعصر الذي لا يظهر أثره في آداب أهله ، هل نتوسم فيه شيئاً من دلائل الحياة ، أو نتوسم في أهله ؟

لقد تخلينا عن ملابس أجدادنا الثقيلة القديمة الخشنة : ملابس الصحراء الجافة الصارمة وارتدينا ملابس العصر الحديث ، ولم نعد نرضى عنها بديلا . وكذلك لا بد لأدبنا من أن يخلع ما لا يلائمه من اللباس الصحراوي القديم ، الذي حشرتها فيه الصحراء الجافة الصارمة قروناً طوالاً ، لينطلق في موكب الحياة حراً طليقاً يؤدي رسالة الحياة على أكمل وجه فلا نظل — برغم ما يبهر أعيننا من أضواء الحياة الساطعة ، ويرن في آذاننا من أصواتها الصادحة — أقصى عدتنا أن نلتفت ، في انتاجنا الأدبي ، إلى الخلف : إلى الأدب القديم الذي تهرأ وعفن لكثرة ما تراكم عليه من أنقاض القرون وغبارها ، لكي نغترف منه « أوبئة » جديدة نغرسها في جسم أدبنا الحاضر ، ولا نخجل من أن ندعو هذه الأوبئة

« أدباً »، أو علاجات لجسم الأدب، أما الحياة التي نعيش فيها، فلا نعرف كيف نعترف منها، واما حاجات العصر، فلا نعرف كيف نعبر عنها، وأما عواطفنا وأفكارنا وخلجات نفوسنا، فلا نعرف كيف نشرحها ونفسرها، وأما أن الأدب هو رسالة وقيادة ونور، فلا نفهمه، ولا نريد أن نفهمه.

ولئن كنت أقول هذا، فلست أريد أن تفهموا من قولي أني أطالب بحرق كل ما لدينا من القديم، وأن يكن أكثره أدب لفظ وألفاظ، لا أدب معان وأفكار، فحاشا لله أن أفعل ذلك، ولو علمتُ أن إنساناً يطالب بمثل هذا، لرأيت في عمله كثيراً من التهوُّر مغالاةً صارخة لامبرّر لها. انما أنا أدعو الى الاحتفاظ بهذا القديم كله — من ألفه إلى يائه، بغثّه وسمينه، عفيفه وداعره، ضعيفه وقويه، جيده ورديئه — في متاحف، أو دور كتب خاصة تقوم مقام المتاحف الأثرية، ليتمكن من الرجوع إليه بسهولة كلُّ من يريد التخصص، أو زيادة الاطلاع، على أن يُنتخب شيء من الصالح منه، ليوضع بين أيدي طلاب الجامعات — طلاب الجامعات فقط — كنماذج من آداب القرون الخوالي، لمجرد الاطلاع فقط، أو لتترف الدراسي على الأصح، لا لاحتذائه وصيانه المثل الأعلى في الانتاج الأدبي. فالذي أعتقده إعتقاداً يقيناً مخلصاً، أنه كما أن الخيل والجمال والحمير — التي كانت كل وسائل المواصلات البرية في عصور ذلك الأدب القديم — قد تخلفت كل التخلف عن قافلة العصر الحديث ومواصلاته، بحيث لم يعد لها مكان الى جانب القطار والسيارة والطيارة — وربما أصبح الصاروخ أيضاً من وسائل المواصلات بعد حين —، كذلك تخلّف أدب الصحراء القديم العقيم، وأساليبه التي لا تزال حية الى اليوم على أقلام أدبائنا وشعرائنا — أو مَن اصطلحنا على تسميتهم أدباء وشعراء — بحيث لم يعد يصلح لعصر الحضارة الذي نعيش فيه: عصر الراديو، والتلفزيون، والقنبلة الذرية، وعصر الكثير المدهش من الاختراعات التي تحير الذهن، وتفقده العقل.

* * *

لست أريد أن أقطع الصلة بين ماضي أدبنا وحاضره، فالذي لا ماضي له، لا حاضر يُرجى له. غير أني لا أريد أن نظلّ عالقين في حدود الماضي البائد، والقديم الذميم: نشرب من مياه الترع الآسنة، والناس من حولنا لا يشربون إلاّ الماء المقطر، ونأكل بأيدينا من قصاع خزفية أو خشبية، والناس لا يأكلون بغير الشوكة والسكين، وفي غير آنية من الصيني المزخرف الجميل، أو من الفضة المجلوّة الزاهية.

يريد أن يجعل من الماضي جسراً يعبر عليه الى الحاضر والى المستقبل ، وأن يستخلص منه العبرة التي تفيدنا ، ونبني عليها أشياء جديدة : أدباً جديداً ، وعهداً جديداً ، وحياة جديدة .

***

أيها الادباء والشعراء !

من كان منكم يستهويه بريق الالفاظ ، وتأسره زاويق الجناس والتورية والاستعارة ، ويهمه إن يقول عنه الناس : إن في رأسه قاموساً ، أو أن تصفق له أكف الحاضرين في الحفلات العامة حتى لتكاد تدمى من التصفيق ، ويقنع من الأدب والشعر بهذا وحده ، فليبق حيث هو ، وله ما يريد ، وهنيئاً له ما يريد ! فكم من صخرة ناشزة تقوم في ذراع الطريق السالك ، أو في خد الحقل الجميل ! وكم من شجرة عقيم ، تتربع في حضن الرياض ، وترشف فروعها من رضاب الغدير ، فلا هي تستفيد ريّا ، ولا هي تستطيع أن تزهر في الروض ، أو تقدم لطيور السماء مقيلاً ولا ثمراً .

وأما من كان منكم ، أيها الشعراء والادباء ! يهمه أن يؤدي رسالة الادب الى الحياة والاحياء ، معبراً في أدبه عن حاجات عصره ، وخلجات نفسه ، باسطاً جناحيه كالنسر للانطلاق من قيود اللفظ وعبودية القديم ؟

من كان يهمه أن يقول كلمته ويمضي ، بأسلوبه الخاص ، لا بأساليب سواه ، وبغير التفات الى الوراء !

من شاء أن يصدح مع الشحارير ، ويعبق مع الأزاهير ، ويصفق مع الجداول ، ويترنم مع هينمات النسيم !

من كان همه أن يؤدي رسالة الادب إلى الحياة : الأدب الذي هو صوت السماء في أذن الأرض ، وترنيمة الفردوس في مسمع الزمن الحائر ، وهدهدة الأزل لضمير الحياة !

من كان هذا همه ، فإليه أوجه النداء الذي جعلته عنوان هذه الكلمة .

« إحمل قلبك واتبعني ! »

عيسى ابراهيم الناعوري

القدس الشريف كلية تراسانتا — القدس